

رُوسِيَا : مِنْ لُوسِيَا فَيُور

معهد الفلسفة بجمهورية جورجيا . وفي لينينغراد ، استفسرت عن مشاريع علماء الاجتماع العاملين يجد في معمل الابحاث الاجتماعية . وجاء اكثر ما تعلمته عن طريق المناقشات مع الفلاسفة السوفييتيين الذين كانوا يبدون اعتراضات ويلقون اسئلة في محاضراتي .

كانت محاضرتي الاولى عن « تطور مذهب ديوي البرغماتي » . وكان جمهور الحاضرين يتألف في معظمه من اعضاء قسم الفلسفة البورجوازية وعلم الاجتماع البورجوازي في المعهد . وأبانت المناقشة التي اعقبت المحاضرة كيف يجعل الموقف العقائدي السوفييتي من الصعب عليهم ان يتناولوا تاريخ الافكار بروح تجريبية .

وفي الدقائق القليلة الاخيرة من المحاضرة ، نظرت في الزعم الذي وجدته في الكتب السوفييتية ومؤداه ان ديوي هو فيلسوف الاستعمار الامريكي . وقلت ان ديوي منذ مؤلفاته السياسية الاولى كان ناقداً للعقائدية الاستعمارية ؛ وان بحثه في العقلية الهمجية عام ١٩٠٢ كان موجهاً ضد الاستعمار العنصري في اعقاب الحرب الاسبانية الامريكية ؛ وانه عاش في الصين عامين ، وشهد حركة الرابع من ايار (مايو) ١٩١٩ وكتب طائفة من المقالات المتنازدة دفاعاً عن برنامجها في مكافحة الاستعمار ؛ رانه كان من نقاد الاستثمار الامريكي في المكسيك ؛ وانه تلقى دعوة شخصية من كرويسكايا ، وربما كان ذلك بايعاز من لينين ، للمساعدة في اعادة تنظيم التعليم السوفييتي ؛ وانه زار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٨ وكتب سلسلة من التقارير الحماسية الحارة بشأن التجربة السوفييتية ؛ واخيراً ان الهجوم السوفييتي على ديوي باعتباره فيلسوفاً استعمارياً انما بدأ في منتصف الثلاثينات حين انتقد ديوي محاكمات موسكو وحركات التطهير فيه .

لست أدعي اني متخصص في شؤون الاتحاد السوفييتي ، لكنني لبثت سنين كثيرة اقرأ المؤلفات عن المجتمع السوفييتي والعقائدية السوفييتية . وأقمت سنين عديدة اتردد على دروس باللغة الروسية ، وحصلت على معرفة ركيكة بها . وكان أملي في الذهاب الى الاتحاد السوفييتي هو ان افعل ما فعلته ذات مرة في اليابان — اعني ان ادخل في مناقشات مع فلاسفته ، وعلماء الاجتماع فيه ، وطلابه ، وان اخاطبهم قبل ان تشطب شكوكهم وتخبطاتهم في البحث لجان تحرير المجلات ، ورجال الادارة ، والبيروقراطيون . وقبض لي ان اتبين ان الامر يقتضي شهراً او يزيد لكي اتعلم في الاتحاد السوفييتي ما لم احتج الى اكثر من اسبوع لتعلمه في اليابان . ففي الامكان مثلاً في اليابان ان تلتقي بسهولة مع شيع شتى من النجاشكورن ، اما في الاتحاد السوفييتي فقد كان لازماً ان ادبر مقابلاتي مع حلقات الطلبة الاحرار بجذر . وبينما كان الاساتذة الماركسيون في اليابان يتحدثون بحرية عن نزعاتهم المتباينة ، كانت هناك بين الاساتذة السوفييتيين استجابة شرطية اولية هي الاعراب عن اتفاق اجماعي بشأن المادية الجدلية ، حتى حين كانت الخلافات بينهم بحيث تبدد الاتفاق صراحة الى افتراق ، وتمزق الأردية العقائدية ارباً ارباً .

وقد تحدثت خلال اربعة شهور ونصف مع اكثر من خمسين فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً سوفييتياً ، واستغرق الحديث ساعة احياناً وطال خمس ساعات احياناً آخر . وفي معهد الفلسفة الملحق بالاكاديمية السوفييتية للعلوم في موسكو ، القيت خمس محاضرات على الباحثين الذين تراوح عددهم بين العشرين والخمسين . وقصدت طشقند لمحادثة اعضاء معهد الفلسفة والقانون في ازبكستان ، ومضيت الى تفليس للدخول في مناقشات مستفيضة مع العلماء في

التقدمية ، والمذهب المثالي هو الفلسفة الرجعية . فمذهب التعالي مثلاً كان الفلسفة التي تعتنقها أكثر الجماعات ثورية بين انصار الاصلاح في التاريخ الامريكي — اعني مفكري الساحل الشرقي الذين كرسوا انفسهم قبل الحرب الاهلية لخدمة الحركات الاشتراكية والهادفة الى الغاء التفرقة العنصرية وتحوير العبيد . وقلت اني كنت ماركسياً عهداً ما ، ولكن خبرتي ودراستي الفلسفية والاجتماعية اقنعتني بان هناك حدوداً اساسية تقيد المذهب الماركسي وتحد منه .

ومن الصعب المغالاة في تصوير الدرجة التي دمر بها العهد الستاليني الفلسفة الاصلية والعلوم الاجتماعية ، ومدى بقاء آثاره حتى الآن . فلا وجود لاستمرار تراث النقاش الفلسفي وتدعيمه . وقد سألت احد الفلاسفة الشبان ، وهو صاحب كتاب عن الاخلاقية الحدسية الانكليزية ، ان كان بوسعك ان يعطيني عنوان كتاب جيد عن تاريخ الفلسفة السوفيتية ؛ واشرت الى ان لدينا في الولايات المتحدة عدداً من الكتب في تاريخ الفلسفة الامريكية . واجاب بعد تفكير يسير بانه ليس هناك كتاب من هذا القبيل في تاريخ الفلسفة السوفيتية . وقال ان السبب بسيط : فهم غير محتاجين اليه لانهم ، على خلاف امريكا ، ليس لديهم مدارس فكرية مختلفة ؛ فالكل يعمل ضمن اطار الفلسفة الماركسية . وبدأ لي هذا الجواب مرادفاً للاعتراف بان الحياة الفلسفية في بلده من التفاهة بحيث لا تستحق الكتابة عنها ؛ وفيه تجشم عناء كتابة تاريخ عن التعليقات والشروح على « الحقيقة » التي سبق ان كتب عنها ماركس ولينين بوضوح كاف ؟ ومضى الفيلسوف الشاب فأضاف انه كان قد سبق اعداد فصل عن الفلسفة في عهد لينين لادماجه في الجزء السادس من التاريخ العام للفلسفة ، ولكنه تعرض لنقد كثير بحيث لم يتسن نشره ابداً . ووضح ان الصمت عن جيل المفكرين السوفيتيين المباد لا يزال يعتبر امراً يقتضيه التروي والتعقل .

وقلت : « انتم انفسكم قد توصلتم منذ ذلك الحين الى تبين ان ديوي كان محقاً وستالين كان على ضلال بشأن هذه المحاكات » .

واصفى الفلاسفة الشبان من بين الحاضرين بانتباه ، ولم يتحدوا هذه الملاحظات . ولكن الرئيس نبه كل فرد الى ان يتذكر اني انما اورد « آرائي الشخصية » ، وانه يجب الا يبرح بالهم ان ديوي قد أيد تروتسكي ، وان تروتسكي كان يحاول اعادة النظام الرأسمالي في الاتحاد السوفيتي . كان هذا امراً يبعث على الاستغراب . فما كانت هؤلاء بالأميين ، بل كانوا نخبة اعلام البحث السوفيتي في شؤون الفكر الغربي ، وكان عليهم جميعاً ان يتقبلوا هذا الهراء . واعقت ذلك اسئلة عن النتائج التي توصلت اليها وعن منهجي ، ثم اعطيت الكلمة للحجة السوفيتي في المذهب البرغماتي الامريكي ، يوري ملفيل . فقال ان ديوي كان فعلاً فيلسوف الاستعمار الامريكي ، وان كل الحقائق التي سقتها كانت عارية عن الاهمية ؛ لأن ديوي كان « من الناحية الموضوعية » مؤيداً للاستعمار ؛ واستشهد بكتاب امريكي يقول ان ديوي اصبح من اعداء الشيوعية ، قبل ان يصبح ذلك هو النزعة الشائعة بزمن طويل .

وألححت على الرئيس ان يسمح لي بدقائق قليلة للرد (والعرف المتبع للحزب الشيوعي هو اعطاء الكلمة الاخيرة للمتحدث بلسانه) . واشرت الى انه كان ماركسياً متعصباً ، بلغ به التعصب لعقيدته حداً استحاله عنده على اية طائفة من الحقائق ان ترحزه عن الاعتقاد بأن ديوي كان « من الناحية الموضوعية » فيلسوفاً للاستعمار ؛ وان هذا كان استخداماً لتعبير « الموضوعية » بمعنى لا يمكن التحقق منه وذلك كما يتفق مع التحيزات العقيدية المسبقة . (وتعالى ضحك مرح من جانب القاعة الذي يشغله الشبان) . ثم حاولت ان ابين كيف ان تاريخ الفلسفة الامريكية لا يؤيد القانون الماركسي القاضي بان المذهب المادي هو الفلسفة

وتكلمت عن فروق الاجيال بين الفلاسفة الامريكيين، وقلت ان مثل هذا الطيف من الفلسفات قد يتبدى، لو ان الاحوال عادية، في الاتحاد السوفييتي، وان هذا امر مألوف في المجتمعات التي لا ينحرف فيها الطيف بفعل ضغط خارجي.

وسرعان ما وجه الي تحد في هذا الاجتماع وفي المناقشات التالية بان اطبق هذين « القانونين » على الفلسفة السوفييتية. وحين فعلت ذلك اول مرة، واشرت الى التباين الذي لاحظت انه بدأ يظهر بين الفلاسفة السوفييتيين، قيل لي ان اسايص قليلة من المناقشات لا تعتبر اساساً كافياً لحكم من هذا القبيل؛ وان كل الفلاسفة السوفييتيين هم ماديون جدليون. وعلى مر الشهور، وبتراكم المناقشات، زاد وضوحاً لدي ان هناك الروايات متباينة من الفلسفات المتصارعة تبزغ الآن في الاتحاد السوفييتي، وانها تندرج كلها تحت مقولة « المادية الجدلية » في اتران غير ثابت. وانما هي السلطة الدكتاتورية، وليس الاتفاق الفكري، التي تفرض لجسام عقائدية مخططة على امزجة متباينة. ومع ذلك، فحق في اطار العقيدة المفروضة، يمكن للمرء ان يتبين آثار قانون الطيف. ففي الاتحاد السوفييتي، يوجد نظير لكل حركة فلسفية في اوربا الغربية وامريكا. ولنا ان نتوقع ازدهاراً لهذه النزعات الفلسفية المتباينة، لو استبعدت العقائدية المرسومة.

وقد وجدت بين الفلاسفة الشبان بصفة رئيسية ثلاث نزعات: الواقعية العلمية، والوجودية، والبرغماتية. فالفلاسفة العلميون هم من اسميهم « واقعيين علميين »، اي ان « ماديتهم » ليست الا ايماناً بواقع العالم المادي الطبيعي. وهم مشغولون في تتبع المشاكل والنصوص التي كانت تحظى باهمية رئيسية في الفلسفة الامريكية منذ خمس وثلاثين سنة. وقد وجدت مثلاً حلقات تدرس مؤلفات لبرتراند رسل، من قبيل « المدخل الى الفلسفة الرياضية » و « المعرفة الانسانية » الاحداث منه

وهناك حادثة وقعت اثناء مناقشة محاضرتي الثانية عن « الدراسة الاجتماعية للعلم » تصور بوضوح حي الاغفال الرسمي للماضي الفلسفي السوفييتي. كنت اعرض مادة نشرت في الشهر التالي في كتاب « المثقف العلمي ». وقلت، رداً على سؤال، اني اختلف مع بحث ماركسي هام في هذا المجال. وسألني احدهم عن البحث الذي اقصد، فأجبت بانه مقالة للعالم السوفييتي ب. هسن بعنوان « الجذور الاجتماعية والاقتصادية لكتاب نيوتن: المبادئ »، نشرت عام ١٩٣١ في كتاب اسمه... ونظر الرئيس الى المترجم، وتبادلا في ومضة رسالة غير ملفوظة، فقاطعتني المترجم: « لا نعرف اي شيء عن المؤلف. ولا نعرف اسمه ». وأوما الرئيس برأسه مؤيداً. ونظرت الى الحاضرين. ولا كلمة، ولا سؤال عن العالم السوفييتي الذي اشتر اليه. لو كان هذا قد حدث في اي اجتماع عادي، لكان من الجدير بالعلماء ان يستقصوا بشغف عن المرجع الدقيق لبحث هام منسي لأحد مواطنيهم. ولكنهم بنظرة واحدة تلقوا تحذيراً: لا تسألوا عن هذا الشخص. وما من شك في ان كتاب « العلم على مفترق الطرق » كان معروفاً للرئيس والمترجم كليهما: وكان المقال الافتتاحي فيه بقلم نيكولا يوخارين الذي لم يرد اليه اعتباره بعد، ومن الواضح ان هسن نفسه اختفى اثناء عهد ستالين. ولا يزال اسمها مغلفين في طوايا الكتب الجماعي لذاكرة السوفييتية؛ وعلى العالم السوفييتي الحكيم ان يتفادى الإشارة الى مؤلفاتها.

وكانت محاضرتي الثالثة عن « الفكر الامريكي المعاصر ». واخترت هذا الموضوع لأنني اردت ان ابرز اهمية التباين الشاسع في الفلسفات الامريكية، وهو ما اسميته « قانون الطيف »، وبوجبه يكون توزيع الفلسفات بالدرجة الاولى ثمرة الفروق في المزاج الفردي، و « قانون الاجنحة »، وبوجبه تنبسط كل حركة فلسفية، سواء كانت برغماتية او مثالية او مادية، في اجنحة اليعنين واليسار والوسط.

عهداً ، ويهتمون بمفاهيم « البنية » و « وحدة الصورة » ، ويتكلمون كثيراً بلغة رصل عن ان بنية العالم المادي وحدها هي التي يمكن ان نعرفها. ويميلون الى رفض نظرية انفلاز في الاحساس « كانعكاس » للعالم ، ويرون ذلك من قبيل « سحر المرأة » . ويرون ان المعنى الاساسي للانعكاس هو « وحدة الصورة » . وترتبط جماعة الواقعيين العلميين صلات سياسية ودية بالوجوديين السوفييتيين ، بمعنى انهم يعتبرونهم « اناساً افاضل » . الا انهم لا يكتفون بتقدير عالٍ للزايا الفلسفية للوجوديين ، الذين لم يتحرروا بعد — في رأيهم — من تصور هيجل ان التناقضات يمكن ان توجد في الواقع .

ما هي السمات المميزة للوجوديين السوفييتيين ؟ اولاً انهم يفضلون دراسة ماركس باعتباره مثلاً للمذهب الانساني ، وصاحب « المخطوطات الاقتصادية الفلسفية » ، وصاحب مفهوم « الاغتراب » . وقد صاغ احد الاساتذة هذا الموقف بقوله : « انهم يهتمون بماركس حين لم يكن قد اصبح ماركسياً بعد » . وحين نوهت بان هذا بالذات هو بيت القصيد — انهم يفضلون ماركس الذي لم يكن ماركسياً — اجاب محتمداً : « بل انهم سيتطورون نحو الماركسية » . ويهتم الوجوديون السوفييتيون بمشاكل الحرية والاخلاق التي حرمت على الوعي في العهد الستاليني ؛ وهم يهتمون بكيفية حياة الفرد عوضاً عن تكتيك الصراع الطبقي العقائدي ، ويستمتعون بقراءة مؤلفين مثل برديايف وسولوفيف ويهتمون بفرويد . وهم يحدون الفلسفة الوجودية الالمانية اكثر تشويقاً من الفكر الامريكي ، ويشعرون انهم اقرب روحياً الى الالمان منهم الى الامريكيين . ويقول هؤلاء ان الالمان اعرق ، وانهم يشيرون على الاقل لمشاكل الوجود حتى وان لم يتمكنوا من حلها ؛ وهم يعتبرون الامريكيين انصاراً للفهم العامي ، وسطحيين نسبياً .

ويضم الواقعيين العلميين والوجوديين معاً معسكر واحد ، باعتبارهم « خصوم النزعة

الاعتقادية » . وقد قال فيلسوف شاب : « ان الاعتقاديين (او الدوغمائيين) هم رجال الماضي ، وهم غير اخلاقيين ، يخافون ان تهتك المناهج المنطقية الستار عن مذاهبهم الخفاء » . وسأله : « باي معنى تعتبرهم غير اخلاقيين ؟ » فأجاب : « هم غير اخلاقيين في مراسمهم اليومي ؛ فهم يحارلون قمع خصومهم عن طريق الادارة . وحين يستطيع شخص ان يبرهن على شيء ما فانه لا يحتاج الى وسائل غير مشروعة » . وكل من فريق الواقعيين العلميين والوجوديين يعتبر الفريق الآخر « تقدماً من الناحية الاجتماعية » لأنها لديها يعارضان الستالينيين الاعتقاديين . وربما كانت وحدتها السياسية هذه شاهداً ضد النظرية التاريخية المادية للافكار ، من حيث ان اختلافاتهم الفلسفية لا تناظر اية اختلافات سياسية ، وربما كان هذا بالفعل بداية الفلسفة ونهاية العقائدية في الاتحاد السوفيتي . وبطبيعة الحال ، لا يستنفد الوجوديون والواقعيون العلميون صور الفلسفة الموجودة بين المفكرين السوفييتيين الشبان . وتنجذب طائفة كبيرة ، ولا سيما في العلوم الاجتماعية ، الى البرغماتية الامريكية . ولا يزال الاعتقادون يصرون على ان البرغماتية صورة من المثالية الذاتية ، ولكن بعض المفكرين الشبان يتحولون الى دراسة بيرس وديوي . وهم يهتمون بايضاح بعض المفاهيم الغامضة ، « كالمراس » . وهم يؤمنون ، باعتبارهم ماركسيين ، بان النظرية الاجتماعية الماركسية في الثورة تتأيد في « المراس » ، ولكن ما معنى هذا ؟ فليست هناك مجموعة كبيرة من الثورات يمكن ان تجعل مدى احتمالات الحدوث اساساً راسخاً لمزاعمهم . وحين يواجهون سلسلة من الحالات الغامضة في « المراس » ، فانهم يفترحون حولاً غامضة واضحة الصلة بنطق ديوي .

ويتبدى البحث الدؤوب عن فلسفة جديدة في حلقات المناقشة التي يعقدها الطلاب بحض ارادتهم

والتي ظهرت مؤخراً في الجامعات . وهناك تفاهم ضمني بينهم على ان مناقشتهم مخلصه وخاصة، ويجب عدم تبليغها الى السلطات . وقد استطعت ان اتعرف الى احدى هذه الحلقات ، ووجدت فيها مزيجاً عجيباً من المثالية السياسية وآراء طبقة الفنانين ، وحينئذ الى مزيد من الحرية الثقافية . وكانت الجماعة تتألف من حوالي اثني عشر من المدرسين الشبان والطلبة الخريجين . وبدأنا ذات مساء بنقاشه النظرية القائلة بان المثقفين هم الطبقة الحاكمة في الاتحاد السوفييتي . وقال احدهم : « هذا غير صحيح ؛ فانك ان نظرت في قوائم مناصب الادارة في المؤسسات الهامة والمراكز الكبيرة ، فستجد معظمها يشغله اشخاص غير متعلمين . ان من يحكم هم بيروقراطيو الآلة ، لا المثقفون » . واستطرد آخر في نفس المعنى : « اعتقد ان المثقفين يجب ان يحكموا . وانا أؤمن بحكم طبقة الفنانين . ان ما هو علمي هو اخلاقي ، وما هو اخلاقي هو علمي . فليس الافضل هو ما يقترح عليه غير المتعلمين والجهلاء ، بل الافضل هو حكم العلماء » . الا ان ثالثاً اعترض على ذلك ، وقال « انه رغم كونه عالماً هو نفسه ، فقد بقي شيوعياً ، وان المطالب تحرير النظام — بالسماح بتداول الصحف والمجلات والابحاث والاحصائيات الاجنبية ، كما يصبح في وسعهم اجراء مقارنات لها معنى » .

وأثار آخر حديث لي في معهد الفلسفة عصفاً من الهجوم البيروقراطي العامي من جانب المدير . فقد طلب مني ، وقد اكملت جولاتي في الاتحاد السوفييتي ، ان ألقى تقريراً ختامياً عن انطباعاتي عن الفلسفة وعلم الاجتماع هناك . وكنت راغباً عن ذلك ، ووضحت للمسؤول في المعهد اني لو تكلمت فان كثيراً مما لدي ان اقله لن يبعث على الرضى . فقال انهم يعتبروني صديقاً ، وان المعهد كان قد استمع الى احاديث في الماضي من زائرين امريكيين ذكر اسماءهم . الا ان الاسماء المذكورة كانت كلها ،

ما عدا اسماً واحداً ، لشيوعيين امريكيين او توابعهم ، وألححت الى انهم ربما انبأوا مضيقهم بما كان يطيب لهؤلاء ان يسموه ، اما المستثنى فكان استاذاً لعلم الاجتماع اقام في البلاد فترة اقصر من ان تعلمه الكثير عما يجري بالفعل . ولكن المسؤول ألح مشيراً الى انها ستكون مناسبة جدرة بالاهتمام ، ولا سيما للجمهور الذي قال انه سيتألف من الباحثين الشبان الذين جرت بيني وبينهم مناقشات فردية مراراً عديدة . ولكن في اليوم الموعد ، وبالرغم من وجود الباحثين الشبان، احتكر المناقشة العقائديون الاكبر سناً والذين قلما اسهموا في اجتماعاتنا السابقة . وهكذا بدأ الاجتماع . قلت ان الفكر السوفييتي هو في مفترق الطرق ، واحسن وصف لحاله هو عنوان قصة تورغنيف « في العشية » . واقترحت ان اعرض مشاكل لا اعرف الجواب عليها ، ولا اعرف كيف او اجهاها لو كنت في مكانهم . ولكني كنت قد تحدثت مع العلماء والطلبة في المعاهد والجامعات في سلسلة من « المحاورات والمقابلات » ، وهي اعرق منهج فلسفي في العالم . وأرد ان اقارن دراساتهم الاجتماعية بما يحدث في امريكا . ويبدو لي ان العلم الاجتماعي السوفييتي قد اخفق في مجابهة عدة مشاكل هامة . فلم يكن هناك بحث في صراع الاجيال . فبينما تجري في امريكا حالياً دراسات عديدة عن حركات الطلبة ، هناك انكار لوجود اي صراع بين الاجيال في الاتحاد السوفييتي . ومع ذلك فقد وجدت ابان جولاتي شواهد جمة على هذا الصراع . ففي جامعة لينينغراد ، في اجتماع مفتوح للمنظمة الشيوعية في دائرة اللغات ، تحدى الطلبة وسخروا من الدفاع الذي حاول رئيس تحرير « نيفا » ان يعرضه تأييداً لاتجاه الحزب الجديد ضد الفن التجريدي . كما جرت مناقشات حديثة في جامعة موسكو الحكومية لم أشأ ان ادخل فيها . ومع ذلك فلم يبد اي عالم اجتماع سوفييتي استعداداً لدراسة ظواهر الصراع . ثم تحدثت عن عدم وجود اي مقال او كتاب

حانوت للبنادق ، او لينين يلعب الشطرنج بنادي الشطرنج ، او لينين مع الاطفال وهو يهيب بهم ان « ادرسوا وادرسوا وادرسوا » - وعرض شخصية ماركس باعتبارها النموذج لحياة الاسرة . وحين سئلت ، اجبت بان رسائل اليانور ماركس ، الابنة التي قتلت نفسها ، تبين ان الاسرة كانت تعاني شقاء عميق الجذور ، يحتمل ان يكون احد عوامله ميلاد ابن غير شرعي لماركس من وصيفة البيت ، هيلين ديوث . وقلت اني في طريقي الى موسكو زرت المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي للتأكد من وجود وثائق مؤيدة بهذا الشأن ، فانبئت بان الشواهد هي فوق كل مطعن . ورحب الاهتمام برئيس الجلسة ، وعلق احد زملائه بقوله : « هذا يتفق وعبارة ماركس : ما من شيء انساني غريب عني » . وتلك هي النكتة الماركسية الوحيدة التي سمعتها في المعهد .

وكان على كثيرين من الحاضرين ان ينصرفوا في هذا الوقت لارتباطهم بامتحان لاحد المرشحين . واقترح رئيس الجلسة لقاء آخر ، ولكني قلت اني راحل وشيكا ، وأود ان اجمل بإيجاز كل ما كان علي ان اقله بشأن عملهم الفلسفي . وناقشت وصفي لموقفهم الفلسفي بانه « ضدية » كما ناقشت تطور « الوجودية السوفييتية » . وتكلمت عن الاهتمام بفرويد بالرغم من الصعوبة الكبرى في الحصول على مؤلفاته ، ثم استطردت مطوراً « قانون الطيف » ، وانبثاق فلسفات شتى في الاتحاد السوفييتي ، من واقعيين تقديدين على منوال رسل ، ووضعيين ، ومنطقيين رياضيين يعارضون الجدليين ، واولئك الذين يلحون على « المراس » ولا يتمتعون عن البرغماتيين الامريكيين . واهتزت الرؤوس في انكار عنيف . واخيراً قلت انه ان كانت لي « رسالة اخيرة » ، فهي ان الفكر السوفييتي يحتاج الآن الى شخص يؤدي له ما ادى جون ستيوارت مل لانكلترا ووالف ولدو امرسن لأمريكا - ان يبرز لا « الطبقة » ، ولا « الشعب » ، بل أهمية الفرد .

في علم الاجتماع يحلل « شعيرة عبادة الشخصية » . وقلت ان الامريكيين يكرسون وقتاً طائلاً للدراسة الاجتماعية للقيادة السياسية . اما في الاتحاد السوفييتي ، فعلى الرغم من انهم يعرفون بوضوح كل شيء عن المشاكل العنصرية في برمنغهام والاستعمار في آسيا وافريقيا ، فانهم لم يستطيعوا ان يخرجوا اية دراسة علمية لأهم ظاهرة حديثة في علم الاجتماع السياسي في بلادهم . وقلت اني لا اعني بالتحليل العلمي تكرار عبارة خروتشيف عن اخطاء ستالين . فاني استطعت ان اقرأ هذه الخطب ايضاً . بل ان ما اعنيه هو التحليل الاجتماعي : كم بلغ عدد الضحايا ، عاماً اثر عام ؟ من اية الطبقات الاجتماعية اتوا ؟ ما هي انواع الاتهامات التي وجهت اليهم ؟ من كان يمثل الاتهام ؟ كيف انتفع موجهو الاتهام بالاتهامات ؟ وقلت انهم يجب ان يدرسوا ايضاً مصير الاطفال الذين زج بآبائهم في معسكرات ستالين . فحين يقتل ملايين من الناس ويعذبون ، فليس من التحليل العلمي الاجتماعي في شيء ان يشار الى ذلك بأنه « خطأ » . وقد سألت اكثر من ١٥٠ من علماء الاجتماع والفلسفة ان كان اي واحد منهم يجري دراسة عن شعيرة عبادة الشخصية ، وأجابوا كلهم بلا استثناء : « ليست هذه مشكلتي » . وانبئت ان المؤرخين في معهد الماركسية اللينينية كانوا يهشون نشر وثائق عن فترة الشعيرة ، فذهبت الى المعهد للتحقق من صدق هذه الرواية وقابلت امين المعهد الذي انبأني بتأكيد انهم لم يضعوا اية مشاريع لهذا النشر . فقلت ان ماركس ما كان ليخفي مثل هذه الوثائق ابداً .

وحاولت بعد ذلك ان انظر في الدراسة الاجتماعية لحضارة الجماعات السوفييتية . وقلت انه بالرغم من انتقادم الحضارة الامريكية ، الا انهم لم يدرسوا حضارتهم . كما فعل الامريكيون بشأن حضارتهم . واستطردت قائلاً انهم لم يدرسوا العواقب الاجتماعية لربط التربية الاخلاقية عندهم بالنماذج التاريخية - صورة لينين بزي صياد في